الرِسالة المُصاحِبة بُعداً تداولياً جَديداً
حَديثُ (خاصف النعل) بروِاية الخُدْري أنموذَجا

Evident Content as a Pragmatic Scope
(Palm Frond-Sandalole Weaving Hadith by Al-Khadri
as a Nonpareil)

أ. د. قيس حمزة الخفاجي
أ. م. د. كاظم جاسم العزاوي

Asst.Prof.Dr. Kadhim Jassim Al-`Azawi

الرسالة المصاحبة بُعدًا تداوليا جديدا

حديث(خاصف النعل) برواية الخدري أنموذجا

Evident Content as a Pragmatic Scope
(Palm Frond-Sandalole Weaving Hadith by
Al-Khadri as a Nonpareil)

أ. د. قيس حمزة الخفاجي
أ. م. د. كاظم جاسم العزاوي
جامعة بابل / كلية الآداب/ قسم اللغة العربية

Asst.Prof.Dr. Kadhim Jassim Al-`Azawi ,
Department of Arabic, College of Arts,
University of Babylon

qaysh67@gmail.com
kahdimalazzawi@gmail.com

تاريخ التسليم : ١٥/ ٥/ ٢٠١٨
تاريخ القبول : ١٠/ ٦/ ٢٠١٨

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

ملخص البحث

الرسالة المصاحبة تركيب لغوي وضعناه بأنفسنا نريد له أن يكون مصطلحا نقديا تداوليا، وهي مراد المتكلم الاجتماعي غير المعلن عنه في الخطاب التعبيري (مهما اختلفت أداته التعبيرية؛ كلمة أو لونا أو إيقاعا أو إيماءة ... إلخ) الذي يكون خطابا بديلا عن الخطاب الأصل المخفي بقصدية، ولكن ذلك الخطاب التعبيري يحمل بالتأكيد في طياته إشارة مضمرة إليه، أو يشتمل على عنصرٍ ما، دالٍّ عليه بطريقة خفية).

وقد أفدنا من هذا المفهوم ومما استجد في أفكارنا، في الكشف عن الرسالة المصاحبة في نص آخر مختلف زمانيا ومكانيا ومضمونيا، وهو حديث النبي ﷺ (خاصف النعل) برواية الخدري.

وبيّنا أن الرسالة المصاحبة من حيث مدى وضوحها، على ثلاث درجات، هي:

١- الدرجة الإدراكية. ٢- الدرجة التأملية. ٣- الدرجة الإخبارية.

وعلى وفق ما جاء في البحث فإن الرسالة المصاحبة الكبرى في حديث (خاصف النعل) هي ما يمكن التعبير عنه بالآتي:

(إن علي بن أبي طالب هو من سيتولى شؤون الدين من بعدي).

Abstract

The evident content is a linguistic structure done by ourselves to be a pragmatic and critical term . That is to say , the intention of the speaker , implicit, is not declared in the context , thought the expressions are different in a word , colour , rhythm , gesture and so forth) . Such a discourse takes so deep a message moving in tandem with the major one as it could be traced in the Palm Frond-Sandal Weaving Hadith narrated by Al-Khadri that bifurcated into three levels :

1 -Recognition Level.

2 -Contemplation Level.

3 - Information Level.

All in all the evident content in the Palm Frond-Sandal Weaving Hadith by Al-Khadri could be as follows :

(Imam Ali Ibn Abi Talib is the one who will ascend to authority after me)

المحور الأول

مستويات الرسالة المصاحبة

لما كانت التداولية فرعا من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم، أو هي دراسة معنى المتكلم[1]، وكان المعنى- على وفق ذلك- ذا «مستويات ثلاثة: المعنى اللغوي وهو المعنى المأخوذ مباشرة من دلالة الكلمات والضمائم والجمل، ومعنى الكلام وهو المعنى السياقي، ثم المعنى الكامن أو الموجود بالقوة [...] وهو معنى المتكلم»[2]، فإن المعنى الثالث هو ما أفدنا منه في اكتشاف مفهوم الرسالة المصاحبة.

والرسالة المصاحبة من حيث مدى وضوحها، على ثلاث درجات، هي:

١- الدرجة الإدراكية: وهي الدرجة التي يمكن أن يلتقط فيها المخاطب الرسالة المصاحبة بسهولة ويسر مستعينا بالسياق من دون إعمال فكر كبير، فإذا خاطب أحدهم آخر، وقد قدّم له شايا، قائلا:(أنا عطشان) مما يعني أن ما يقصد من القول بشكله الأولي هو(أحضر لي ماء)، وهو ما توقف عن حده التداوليون[3]، فإن هذا القول وما يقصد منه، يتضمن رسالة مصاحبة كامنة في معنى المتكلم، يستطيع المخاطب في الوضع الطبيعي أن يلتقطها، وهي:(لا أستطيع أن أشرب الشاي وأنا عطشان)، ولو قالها له وهو يطلب منه الركض، فرسالة قوله المصاحبة هي:(لا أستطيع الركض قبل شرب الماء)، ولو قالها له وقد طلب منه الاستمرار بالحديث، فرسالة قوله المصاحبة هي:(لا أستطيع الاستمرار بالحديث ولساني متيبس من العطش)، مما يعني إمكانية استعمال جملة:(أنا عطشان) في مواقف متعددة وسياقات متنوعة، وهي تحمل رسالة مصاحبة، مؤداها:(لا أستطيع القيام بفعل ما وأنا في حالة عطش).

وإذا خاطب متكلم أحدهم وقد وضع سيارته في الطريق، بطريقة غير صحيحة، قائلا:(أهذه سيارتك؟)، مما يعني أن ما يقصد من القول بشكله الأولي هو(اللوم على وضع السيارة في مكان غير صحيح)، فإن هذا القول وما يقصد منه، يتضمن أيضا رسالة مصاحبة كامنة في معنى المتكلم، ولكنها سهلة الالتقاط على المخاطب، وهي:(القيام بإيقافها بشكل صحيح بما يناسب المتكلم)؛ لأن سيارته سدت طريق المرور من وجهة نظر المتكلم[٤].

٢- الدرجة التأملية: وهي الدرجة التي يحتاج فيها المخاطب إلى التأمل وإعمال الفكر والاستعانة بالسياق بشكل أكبر مما يبذله في الدرجة الأولى وهي الدرجة الإدراكية، فإذا كان(ما يقال)- على وفق توضيح غرايس- هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية، وهو ما يحمله القول من معنى صريح، وإذا كان(ما يُقصد) هو ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع على نحو غير مباشر، اعتمادا على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال، وهو ما يحمله القول من معنى متضمن[٥]، فإن هذا الذي سمي بالمعنى المتضمن ليس هو الرسالة المصاحبة، وإنما هي ما يأتي بعده، فقولنا(علي أسد) في ضمن هذا التصور، لا تكون رسالته المصاحبة أن عليا شجاع في ضوء مفهوم التشبيه، أي الإخبار عن شجاعة علي، وإنما الرسالة المصاحبة في هذا القول هي: يقينية الاعتماد على علي في المواقف التي تتطلب الشجاعة.

وعليه فإن ما كان يشغل غرايس، و"هو كيف يكون ممكنا أن يقول المتكلم شيئا ويعني شيئا آخر؟ ثم كيف يكون ممكنا أيضا أن يسمع المخاطب شيئا ويفهم شيئا آخر؟"[٦]، يبدو لنا أنه يقع في ضمن الدرجة الثانية وهي الدرجة التأملية أكثر من وقوعه في الدرجة الأولى وهي الدرجة الإدراكية.

وإذا كان الفعل الإنجازي «هو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي»[٧]، والأفعال الإنجازية المباشرة عند سيرل تعني تلك الأفعال التي تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم، أي يكون ما يقوله مطابقا لما يعنيه، والأفعال الإنجازية غير المباشرة هي تلك الأفعال التي تخالف فيها قوتها الإنجازية مراد المتكلم[٨]، فإن مراد المتكلم من قوله(هل تناولني الملح؟) هو(ناولني الملح)[٩]، وهذا ما تقف التداولية عند حدوده، إما في بحثنا فإن الرسالة المصاحبة لهذا القول هي أبعد من هذا المدى، إذ إن هناك رسالة مصاحبة مفادها مثلا:(الطعام باهت)، وقد تحمل هذه الرسالة المصاحبة رسائل أخر، مثل:(زيادة الملح لا تضر بصحتي).

وإذا بدت إجابة الطفل لأبيه:(لا أشعر بالنعاس)، حين قال له أبوه بعد العشاء (نظف أسنانك)، إجابة غريبة عند من حللها تداوليا[١٠]، فإننا نرى أن مرد ذلك أنه لم يصب عنايته بشكل تداولي عميق على طلب الأب نفسه، فطلبه يحمل رسالة مصاحبة أولى مفادها(حان وقت نومك)، وهذه الرسالة تحمل في طياتها رسالة مصاحبة ثانية، مفادها(فسح المجال للأب بالقيام بفعل ما)، ومن الممكن أن يكون الطفل قد التقط الرسالة الأولى فقط، فأجاب بما يناسبها، إجابة تحمل رسالة مصاحبة مفادها:(أنا معتاد على فعل ذلك قبل النوم)، ومن الممكن أن يكون قد التقط الرسالة الثانية أيضا، فيكون بإجابته تلك معاندا لأبيه، مشددا على عدم فسح المجال له.

وإذا قال أحدهم لآخر:(النافذة مفتوحة)، والقصد الأولي لهذا القول هو(طلب إغلاق النافذة)، فإن هذا الطلب يحمل رسالة مصاحبة هي(جعل الجو في الغرفة مناسبا بالتخلص مما يعكر صفو المتكلم)، وبحسب سياق القول فإنه قد يعني المحافظة على مستوى درجة الحرارة فيها، بمنع دخول الهواء الحار أو البارد إليها،

أو المحافظة على هدوئها، بقطع مصدر الهواء العالي، أو قطع مصدر الضوضاء، أو التلصص من الخارج، أو قطع مصدر تسرب الكلام إلى الخارج، بحسب ظروف إنتاج القول.

٣- الدرجة الإخبارية: وهي الدرجة التي يحتاج فيها المخاطب إلى إخباره بالرسالة من جهة مخصوصة عالمة بها لا يمكن أن يلتقطه إدراكيا أو تأمليا بعد شعوره بالعجز عن التقاطها، وهذا ما يتوافر بكثرة في النصوص ذات الصبغة الدينية، التي لا يعلم برسالتها المصاحبة إلا الله ومن يختصهم الله بعلمها، أي أن معلوماتهم إلهية المصدر.

ومن الشواهد البيّنة – كما نرى- على أن هناك رسائل مصاحبة لا يمكن معرفتها إلا بالإخبار، بوساطة شخص له مميزات ومؤهلات معينة، أهمها أن معلوماته إلهية المصدر، ما ذكرته سورة الكهف من حوار بين النبي موسى والخضر ﷺ، فعلى الرغم من كون موسى نبيا، والخضر ليس إلا عبدا صالحا، إذ لم يكن نبيا على ما هو متعارف عليه، لم يلتقط موسى الرسائل المصاحبة لأفعال الخضر، ولم يتكشف له وجه الحكمة فيها.

ومن الأدلة على أن معلومات الخضر إلهية المصدر قوله تعالى:(فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا{٦٥})، وطلب النبي موسى نفسه وهو نبي، من الخضر أن يعلمه مما علّمه الله، إذ(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا{٦٦}).

ولأن الرسائل المصاحبة في أفعال الخضر خفية جدا لا يمكن إدراكها بسهولة، ولا بالتأمل، ولأن الحدث الحامل لها صعب التقبل أو حرجٌ من حيث المنطق الطبيعي

للبشر، ولمعرفة الخضر بهذه الأمور، (قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا{٦٧}).

ولأهمية معرفة السياق والإلمام بظروف الحدث في التقاط الرسالة المصاحبة، ولإدراك الخضر أن النبي موسى لم يُلمّ بظروف الأحداث التي سيقوم بها الخضر، علل عدم استطاعة النبي موسى على الصبر، بقوله:(وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا{٦٨}).

واعترافا من النبي موسى بأعلمية الخضر بالأحداث وسياقاتها وظروفها، وإعرابا عن تبعيته له:(قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا{٦٩}).

وتقتضي التبعية أن يسلّم التابع للمتبوع في ما يفعل، وإن لم يدرك مغزى الفعل، ولذلك(قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا{٧٠}).

وبناء على ذلك التعاقد الاتّباعي بدأت رحلة الأفعال:(فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا{٧١})، وتعليق النبي موسى الاعتراضي على خرق الخضر للسفينة، يدل أولا على عدم تحمّله لهذا الفعل، ويدل ثانيا على عدم التقاطه الرسالة المصاحبة له، ولذلك جاء رد فعل الخضر متمثلا بأنه(قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا{٧٢}).

وتعبيرا عن الرغبة في مواصلة النبي موسى متابعته للخضر، اعتذر عن اعتراضه على خرق السفينة بالنسيان، وبكون ما حدث أكبر من طاقة تحمله، إذ(قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا{٧٣}).

ثم قام الخضر بفعل آخر أشد صعوبة في التحمل من الأول وهو قتل الغلام، إذ إن قتل غلام أقسى من خرق سفينة، وأظهر النبي موسى ما يدل على عدم تحمله

لهذا القتل، وعلى عدم التقاطه الرسالة المصاحبة له، وقد تجلى ذلك في قوله تعالى: (فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا{٧٤} قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا{٧٥}).

وتأكيدا من النبي موسى على أنه لم يلتقط الرسالتين المصاحبتين في الفعلين السابقين(خرق السفينة وقتل الغلام)، وعلى استمراريته في النظر إلى الخضر على أنه أعلم منه(قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا{٦٧}).

وبعد أن تبين للخضر أن النبي موسى لم يتحمل ما أتى به من فعلين سابقين وفعل لاحق هو(إقامة الجدار في ظروف غير مناسبة)، ولم يلتقط الرسائل المصاحبة لها، بدليل ما جاء في قوله تعالى:(فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا {٧٧})، أعلن أن هذه النقطة هي اللحظة الفاصلة بينهما بانتهاء المتابعة من جهة، والحاسمة في تبيين الرسائل المصاحبة، إذ(قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا {٧٨} أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا{٧٩} وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا{٨٠} فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا{٨١} وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ)، وهذا القول يؤكد أن التأويل بشكل عام تنبيء وإخبار، وأنه هنا تأويل أفعال وليس تأويل كلام، وأن الأشخاص غير المعلَّمين جميعهم ليسوا بقادرين على معرفة التأويل، وإن عاشوا ظروف الفعل المؤوَّل.

مثل هذه الرسائل المصاحبة المتصلة بما هو واقع خارج إمكانيات الإنسان

في الوضع الطبيعي، لا يمكن أن يلتقطها إلا من كانت معلوماته إلهية المصدر، لذلك قال الخضر:(وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي)، وهذا القول يشكل دليلا ثالثا على كون معلومات الخضر إلهية المصدر، وعلى كون أفعاله مبنية على تلك المعلومات وليست من عندياته، ويؤكد أيضا أن التأويل الحق لا يصدر إلا عن الله وعن الذين يختصهم الله بمعرفة ذلك التأويل.

ثم أكّد الخضر أن تلك الرسائل المصاحبة تمثل تأويلا لتلك الأفعال، إذ قال: (ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا {٨٢}) واستعمال اسم الإشارة(ذلك) في هذا القول، يؤكد أن التأويل مما يمكن أن يشار إليه، وأنه هنا مرتبط بالزمن، وأن الأمر المحتاج إلى تأويله قد يُشكل على من ليس له معرفة بتأويله، وأن النتيجة الكبرى هي أن العلم بالتأويل مخصوص بالله وبمن يختصهم الله به.

والرسالة المصاحبة الكبرى التي تتضمنها الأفعال الثلاثة كلها التي قام بها الخضر، هي أن تلك الأفعال ليست أفعالا إيذائية كما بدت للنبي موسى، وإنما هي أفعال عناية إلهية تجلت بحماية الله لمن أراد لهم الحماية من وقوع الأذى والضرر عليهم.

وعلى وفق ما ظهر لنا في ما تقدم من البحث في المحور الأول، سنقوم بتحليل حديث(خاصف النعل)- بالروايات الواردة عن أبي سعيد الخدري- بوصفه أنموذجا حاملا رسائل مصاحبة في المحور الثاني.

المحور الثاني

حديث (خاصف النعل) والرسائل المصاحبة

أقدم نص لحديث(خاصف النعل) توقفنا عنده، ورد في كتاب(المصنف) لابن أبي شيبة، جاء فيه:(عن أبي سعيد الخدري قال: كنا جلوسا في المسجد فخرج رسول الله ﷺ فجلس إلينا، ولكأن على رؤوسنا الطير، لا يتكلم أحد منا، فقال:(إن منكم رجلا يقاتل الناس على تأويل القرآن كما قوتلتم على تنزيله)، فقام أبو بكر فقال: أنا هو يا رسول الله؟ قال:(لا)، فقام عمر فقال: أنا هو يا رسول الله؟ قال:(لا، ولكنه خاصف النعل في الحُجرة)، قال: فخرج علينا عليّ ومعه نعل رسول الله ﷺ يُصلح منها)[11].

وسياق هذا النص يؤكد أن الرسول ﷺ والصحابة في أثناء نطق الرسول ﷺ، بحديث المقاتلة على التأويل، كانوا في وضع الجلوس وفي حالة صمت مطبق تجعلهم جميعا يسمعون ما يمكن أن يقال في تلك اللحظة، وأن أبا بكر وعمر قد قاما قياما على التوالي لإبراز نفسيهما أمام الآخرين، وشفعا قيامهما بعبارة استفهامية مجازية متسعة:(أنا هو يا رسول الله؟) تدل على استشعارهما معنى المتكلم بشكل عام، وهو حصول ذلك المقاتل على منزلة رفيعة بين المسلمين، ولكنهما لم يلتقطا الرسالة المصاحبة التي تهدف إلى تحديد شخص ذلك المقاتل على التأويل، والدليل على ذلك أن الرسول ﷺ قد نفى كونَ أيّ منهما تأويلا لذلك القول.

ولأن الأمر مهم جدا، كان لا بد من بث إشارة لغوية(ولكنه خاصف النعل) مشفوعة بإشارة مكانية(في الحجرة) تثبت شخص المقاتل وتستبعد من سواه... وقد حددت الرواية ذلك الشخص من خلال قيامه بحركة مكانية منه، هي خروجه من

الحجرة ومعه نعل رسول الله، وذلك الشخص هو علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو تأويل ذلك المقاتل الذي يستحق تلك المنزلة الرفيعة.

وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم:(ولكنه خاصف النعل في الحُجرة)، يحمل رسالة مصاحبة أخرى من الدرجة الإدراكية التي يمكن أن تدرك بسهولة ويسر على وفق معطيات واقعة خصف النعل.

هذا التوضيح من النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي يمثل تنبيئا بالتأويل، هو الرسالة المصاحبة لحديث المقاتل، التي لم يستطع الصحابة الموجودون على جلالة قدرهم أن يلتقطوها، إلا بإخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم بها.

وانطلاقا من تنوع روايات هذا الحديث على الرغم من كون راويها الأول جميعا هو أبا سعيد الخدري، رأينا أن نقف عند ما يمكن الوقوف عنده منها على وفق تسلسل تاريخي.

ورد في(مسند الإمام أحمد بن حنبل)، عن أبي سعيد الخدري أنه «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إنّ منكم من يقاتل على تأويله كما قاتلت على تنزيله)، قال: فقام أبو بكر وعمر، فقال: لا، ولكنه خاصف النعل، وعلي يخصف نعله"[١٢]، وهذه الرواية أيضا تدلّ على أنهما هما من قدّما نفسيهما على أن كل واحد منهما هو المعنيّ المراد، أي أن قيام أبي بكر وعمر ليس من باب المعنى، وإنما من باب المعنيّ بالمقاتلة على التأويل، وردّه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:(لا)، يدل على أنهما تأوّلا قوله، ولم يكن من باب علمها بالتأويل.

وبغية الحصول على معلومات سياقية أكثر تفصيلا نفيد مما ورد أيضا بعد ذلك في مسنده، ففيه روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال:(كنا جلوسا ننتظر رسول الله

ﷺ، فخرج علينا من بعض بيوت نسائه، قال: فقمنا معه، فانقطعت نعله، فتخلف عليها عليّ يخصفها، فمضى رسول اللهﷺ، ومضينا معه، ثم قام ينتظره، وقمنا معه، فقال:(إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله)، فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر، فقال:(لا، ولكنه خاصف النعل)، قال: فجئنا نبشره، قال: وكأنه قد سمعه)[١٣]، فالسياق لواقعة الخصف الخاصة، صار واضحا للمتلقي.

ومع ذلك نلحظ تغيرات في هذه الراوية منها أنهم كانوا في وضع الانتظار وقوفا وليس في وضع الجلوس، ولذلك كانت محاولة إبراز النفس من خلال الاستشراف وليس من خلال القيام، وجملة(استشرفنا) تدل على أن هناك من هو غير أبي بكر وعمر رأى نفسه هو المعني أو الذي يمكن أن يكون معنيا به، وتدل جملة(جئنا نبشره) على أن عددا من الصحابة هم الذين ذهبوا إليه بعد أن عرفوا أنه هو المعني، وتدل الجملتان السابقتان كلتاهما على أهمية تلك المكانة وعظم قدرها وسعادة من يكون معنيا بها.

والعنصر الأبرز في المتغيرات هو رد فعل الإمام عليعليه السلام، إذ لم يصدر عنه ما صدر عن الصحابة من اندفاع نحو نيل تلك المنزلة، إذ ورد فيه(فجئنا نبشره، قال: وكأنه قد سمعه).

وإذا تابعنا الرواية في كتاب(سنن النسائي الكبرى)، فإننا نجد أنها تكشف بوضعها القرائي عن أن كلا من أبي بكر وعمر دعا لنفسه بصورة صريحة موجزة: (أنا)، بعد سماعهما حديث المقاتل، وبما لا يدل على أنهما كانا يستفهمان بطريقة مجازية، إذ روي عن أبي سعيد الخدري أنه «قال:[...] فقال أبو بكر: أنا، قال:(لا)، قال عمر: أنا، قال:(لا، ولكن صاحب النعل)»[١٤].

ولكن الصيغة الاستفهامية المجازية الموجزة تظهر من جديد في الوضع القرائي

للرواية نفسها عند النسائي، ولكن ليس في سننه، وإنما في كتابه الآخر (خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه) إذ جاء قولاهما مشفوعين بعلامة الاستفهام:(فقال أبو بكر: أنا؟ قال: (لا)، قال عمر: أنا؟ قال:(لا، ولكن خاصف النعل))[١٥].

وعادت الصيغة الاستفهامية المتسعة إلى الظهور في ما روي في كتابي (مسند أبي يعلى) و(صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان) مشفوعة بمعلومات سياقية كاشفة عن شخص خاصف النعل:"فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال:(لا)، قال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال:(لا، ولكنه خاصف النعل)، وكان أعطى عليا نعله يخصفها»[١٦]، وصيغة هذه الرواية تؤكد أن هناك رسالة مصاحبة من الدرجة الإدراكية، لتضمنها معلومات سياقية تسهم بتحديد شخص الخاصف بسهولة.

وما روي في(المستدرك) للحاكم النيسابوري، و(أمالي الطوسي) يكشف عن التباين بين رد الفعل الصادر عن الصحابة ورد الفعل الصادر عن الإمام علي عليه السلام: «فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر(ره)، قال أبو بكر: أنا هو، قال:(لا)، قال عمر: أنا هو، قال: (لا، ولكن خاصف النعل)، يعني عليا، فأتيناه، فبشرناه، فلم يرفع به رأسه، كأنه قد كان سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله"[١٧].

وأول رواية تضيف جديدا إلى بحثنا من روايات كتاب(تاريخ دمشق) لابن عساكر، هي:"فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا هو، قال:(لا، هو صاحب النعل)، قال أبو سعيد: أنا بشرت بها عليا، فما رأيته اكترث لذلك كأنه قد علم به قبل ذلك"[١٨]، نجد أنها لا تسمي الصحابي الذي قدّم نفسه على أنه هو المعني أو يمكن أن يكون معنيا، بمراد كلام النبي صلى الله عليه وآله، وشرحت ردّ فعل الإمام علي عليه السلام بقوله:(فما رأيته اكترث لذلك).

والرواية الثانية تبين لنا أن الإمام لم يظهر فرحا كما كان متوقعا ممن ذهب إليه ليبشره:"قال أبو سعيد: فخرجت فبشرته بما قال رسول اللهﷺ، فما اكترث به فرحا كأنه شيء قد سمعه"(١٩).

أما الرواية الثالثة فإنها تبين أن الصحابة قد التقطوا الرسالة المصاحبة لتعبير خاصف النعل:(قال:(لا، ولكن خاصف النعل في الحجرة) يعني علي بن أبي طالب)(٢٠).

وتنفرد رواية أخرى من روايات(تاريخ دمشق)، في كون الناس هم الذين استشرفوا أبا بكر وعمر لتلك المنزلة ولم يكونا هما من قدّما نفسيهما، إذ ورد فيه:"عن أبي سعيد الخدري قال: انقطع شسع رسول اللهﷺ، فتخلف عليه علي يخصفها لشسع، فقال رسول اللهﷺ:(إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله)، فاستشرف الناسُ أبا بكر وعمر، فقال:(ليس بهما، ولكن خاصف النعل)، فذهبنا إلى علي فبشرناه بما قال، فلم يرفع بقولنا رأسا كأنه شيء قد سمعه»(٢١)، ونجد هنا تسمية لمن رآه الناس معنيا، فإذا كان القول الأول لرسول اللهﷺ الخاص بالمقاتلة على التأويل، يدل على حصول شخص ما في المستقبل على مكانة متميزة جدا، فقد دعت هذه الدلالة الناس الحاضرين في تلك الواقعة إلى أن يستشرفوا لها من رأوه هم بتأوّلهم لكلام رسول اللهﷺ أنه هو المعني بكلامه، ولم تقتصر الرواية على تحديد اسم واحد لتلك المنزلة وإنما سمت شخصين هما أبو بكر وعمر، وتأول الناس للمعني هنا بوصفه رسالة مصاحبة، قام كما يبدو على المستويين الأول والثاني من مستويات الرسالة المصاحبة- المذكورة من قبل- أو على أحدهما، ولكن النبيﷺ بيّن أن من أشار إليهما الناس ليسا هما الشخص المعني بحديثه، إذ قال(ليس بهما)، ثم وجّه أنظار الناس وأفكارهم إلى الشخص المعني، بطريقة تتضمن رسالة مصاحبة

أخرى، بتقديمه بعض صفات المعني، وهي صفة خصف النعل، مما أكد أن الناس بفعلهم الاستشرافي انطلقوا من عنادياتهم ولم يكونوا عارفين بالشخص المراد في هذا الحديث، أي لم يكونوا عالمين بتأويله.

ولأن من القوم من يعلم أن من يقوم بالخصف في أثناء ذلك الموقف هو علي بن أبي طالب، وأنه قد نال من بينهم جميعا تلك المنزلة القيادية الدينية الكبيرة، فقد ذهب إليه مجموعة منهم يبشرونه، ومن أولئك الراوي نفسه أبو سعيد الخدري كما أعلنته هذه الرواية، وعبد الرحمن بن بشير حين قام هو نفسه أيضا برواية الواقعة[٢٢].

ولأهمية الأمر وفضّ ما يمكن أن يحدث من نزاع حول الشخص المعنيّ، فقد أرسل النبيﷺ رسالة لغوية تحمل رسالة مصاحبة أخرى كما ذكرنا قبل قليل، بقوله(ولكن خاصف النعل)، معتمدا على قرينتين سياقيتين اجتماعيتين واقعيتين، تتجلى الأولى بالتحديد الزماني والمكاني والشخصي في رقعة جغرافية محددة، وهي المكان الذي يوجد فيه الرسولﷺ ومجموعة من الصحابة، وبزمان محدد هو ذلك الزمان الذي نطق فيه النبيﷺ ذلك الحديث، وبأشخاص محددين، وهم تلك المجموعة من الصحابة، وتتجلى الثانية بالتحديد لشخص واحد من تلك المجموعة، من خلال الاعتماد على رؤية الصحابة الذين كانوا معه، لواقعة خصف النعل قبل قليل، وكون الإمام عليعليه السلام هو من قام بخصف نعل رسول اللهﷺ، وإلا فلا يمكن أن ينصرف الذهن إلى كل من يمتهن خصف أي نعل.

وجملة:(فلم يرفع بقولنا رأسا) تبين الفرق الكبير بين رد فعله هو، وبين ردود فعل الآخرين باستشرافهم، أو وقوفهم بعد أن كانوا جلوسا، وإعرابهم اللفظي الصريح عن رغبتهم فيها؛ لتوجيه الأنظار إلى أنفسهم.

وتفرد ابن أبي الحديد(ت ٦٥٥ هـ) في كتابه(شرح نهج البلاغة) برواية تؤكد بتعبير إشاري وبصورة حسية بصرية أن المعني بخاصف النعل هو الإمام علي عليه السلام، إذ ورد فيها: "قال:(لا، ولكنه ذاكم خاصف النعل)، ويد علي عليه السلام على نعل النبي صلى الله عليه وآله يصلحها"[٢٣].

وهذا التعبير الإشاري(ذاكم) يذكرنا بما رواه الطوسي عن زين العابدين عليه السلام، إذ قال:(انقطع شسع نعل رسول الله صلى الله عليه وآله، فدفعها إلى علي عليه السلام يصلحها، ثم مشى في نعل واحدة غلوة أو نحوها، وأقبل على أصحابه فقال:(إن منكم من يقاتل على التأويل كما قاتل معي على التنزيل)، فقال أبو بكر: أنا ذاك يا رسول الله؟ قال:(لا)، فقال عمر: فأنا يا رسول الله؟ قال:(لا)، فأمسك القوم ونظر بعضهم إلى بعض، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:(لكنه خاصف النعل) وأومأ إلى علي بن أبي طالب عليه السلام)[٢٤]، وهذه الرواية بينت لنا أمورا جديدة لم تظهر في الروايات المروية عن أبي سعيد الخدري، منها مقدار بعد موقع الرسول صلى الله عليه وآله في لحظة نطقه بالحديث، عن موقع الإمام علي عليه السلام الذي بقي فيه يخصف نعل رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله(غلوة أو نحوها) أي بما يقارب رمية سهم، ومنها أيضا إشراك المعني بعملية المقاتلة على التأويل في عملية المقاتلة على التنزيل مع النبي صلى الله عليه وآله، ومنها أيضا رد الفعل الجديد الذي ظهر على وجوه الصحابة وفي عيونهم، بما أوجد فجوة زمنية، سقطت فيها احتمالات الصحابة جميعها المعلنة والمضمرة، ليعلن بعدها النبي صلى الله عليه وآله لفظيا وإشاريا الشخص المعني بالمقاتلة على التأويل، وهذا الكشف عن هذا الشخص هو تنبيء بتأويل قوله صلى الله عليه وآله:(إن منكم من يقاتل)، وهذا الإعلان هو الإخبار بالرسالة المصاحبة في الحديث بشكل عام.

وعلى وفق ما تقدم فإن الرسالة المصاحبة الكبرى في حديث(خاصف النعل) هي ما يمكن التعبير عنه بالآتي:(إن علي بن أبي طالب هو من سيتولى شؤون الدين من بعدي).

الهوامش

(١) ظ: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٢.

(٢) م. ن: ١٣، وينظر مصدره الأجنبي هناك.

(٣) ظ: م. ن: ١٢- ١٣.

(٤) ظ: م. ن: ١٣- ١٤.

(٥) ظ: التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل: ٣٣، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٣، وينظر مصدره الأجنبي هناك.

(٦) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٣- ٣٤، وينظر مصدره الأجنبي هناك.

(٧) م. ن: ٥٤، وظ: استراتيجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية: ٧٥.

(٨) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٣.

(٩) ظ: التداولية من أوستن إلى غوفمان: ٦٨، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٥١.

(١٠) ظ: التداولية اليوم- علم جديد في التواصل: ٢٠- ٢٢ و٣١- ٣٢ و١٩٠.

(١١) المصنف: ١٧/ ١٠٥

(١٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ١٧/ ٣٩١.

(١٣) م. ن: ١٨/ ٢٩٥.

(١٤) سنن النسائي الكبرى: ٥/ ١٥٤.

(١٥) خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ١٦٦.

(١٦) مسند أبي يعلى: ٢/ ٣٤١، وظ: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: ١٥/ ٥٨٣.

(١٧) المستدرك على الصحيحن: ٣/ ١٣٢، وظ: كتاب الأمالي: ٣٨٩- ٣٩٠.

(١٨) تاريخ دمشق: ٤٢/ ٤٥١- ٤٥٢.

(١٩) م. ن: ٤٢/ ٤٥٤.

(٢٠) م. ن: ٤٢/ ٤٥٥.

(٢١) م. ن: ٤٢/ ٤٥٥.

(٢٢) ظ: م. ن: ٤٢/ ٤٥٥.

(٢٣) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٢٠٧.

(٢٤) الإرشـاد في معرفة حجج الله على العباد: ١/ ١٢٣- ١٢٤.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، د. ط، ٢٠٠٢م.

٢. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي(ت ٤١٣ هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ط١، ١٩٩٥ م.

٣.استراتيجيات الخطاب-مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجدي المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.

٤. تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر(ت ١٧٥هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، د. ط، ١٩٩٥م.

٥. التداولية اليوم- علم جديد في التواصل، آن روبول وجاك موشلار، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس ود. محمد الشيباني، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

٦. التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ٢٠٠٧م.

٧. التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل، أحمد محمود نحلة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، د. ط، ١٩٩٩م.

٨. خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي(ت ٣٠٣ هـ)، تحقيق وتخريج: أحمد ميرين البلوشي، مكتبة المعلا، الكويت، ط١، ١٩٨٦م.

٩. الرسالة المصاحبة في المحاججة النقدية بين حسان والنابغة في ضوء النظرية التداولية(بحث)، د. قيس حمزة الخفاجي ود. كاظم جاسم العزاوي، تم الاشتراك به في مؤتمر كلية التربية للبنات/ جامعة الكوفة في نيسان/ ٢٠١٧.

١٠. سنن النسائي الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي(ت ٣٠٣ هـ)، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

١١. شرح نهج البلاغة، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين ابن أبي الحديد(ت ٦٥٦ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ط، د. ت.

١٢. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي(ت

٣٥٤ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤- ١٩٩٣.

١٣. كتاب الأمالي، أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي(ت ٤٦٠ هـ)، تحقيق وتصحيح: بهراد الجعفري وعلي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران، ط١، ١٣٨١ هـ.

١٤. المستدرك على الصحيحن، أبو عبد الله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري(ت ٤٠٥ هـ)، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م.

١٥. مسند أبي يعلى، أبو يعلى الموصلي(ت٣٠٧هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٩٨٤.

١٦. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني(ت٢٤١هـ)، حقق هذا الجزء وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي وإبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٧. المصنف، ابن أبي شيبة(ت ٢٣٥)، حققه وقوّم نصوصه وخرّج احاديثه: محمد عوّامة، دار القبلة، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، د. ت.